قواعد منهجية في فهم السنة النبوية والعمل بها

إعداد
أ.د. فالح بن محمد بن فالح الصغيّر

الرياض
1432هـ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الوحيين، وأنار بهما طريق السالكين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، حتى أتاه اليقين، وعلى آله وأصحابه الذين رفعوا لواء السنة، وعملوا بها، ونشروها ودعوا إلى تطبيقها، وذبوا عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وعلى التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يبعث الخلق أجمعين، أما بعد:

فلقد تظافرت أقوال أهل العلم على أن الاشتغال بالعلم الشرعي طلبًا وعملًا ونشرًا من أنفس ما تعمر به الأوقات، وتمضى فيه الأعمال، وأعظم ما يدخر في العاجل والآجل، وأجلّ ما يُرفع به الذكر في الدنيا والآخرة، وأسرع ما يؤدي إلى السعادة في الحياة وبعد الممات، وأجلّ العلم الشرعي علم أصول الدين، المعتمد على المصدرين الأساسيين ـ الكتاب الكريم والسنة النبوية ـ.

وهذه الكلمات هي مشاركة متواضعة لفكرة طالما سألت نفسي عنها، وبحثت عنها في بطون المراجع، وناقشت فيها عددًا من العلماء والمختصين، وقد ألفيتها متناثرة في هذه المراجع، وكل واحد من العلماء يسهم في جانب منها، عظّم الله تعالى لهم الأجر والمثوبة.

وهذه الفكرة هي هل من سِفرٍ يجمع تلك الأفكار ليشكل مادة يدرسها الدارس ويتأملها ويحاول تطبيقها، تكوّن في مجموعها منهجًا متكاملًا لفهم السنة النبوية الفهم الصحيح؟!

إن الدارس للسنة النبوية الدراسة المتعمقة ليجد هذا المنهج الوضوح ينافي الاحتياج إلى الفهم فيما كتبه السلف الصالح وجمعوه، لكننا نحتاج إلى كيفية العمل به.

ومن هنا يمكن إبراز أهم الأسباب الداعية لهذا البحث:

1- إبراز مكانة هذا المصدر الأساس للتشريع الإسلامي – بالسنة النبوية-، وتعظيم شأنه في النفوس، ودراسته الدراسية الصحيحة المبنية على المنهج السليم.

2 ـ ما ظهر في الآونة الأخيرة من دراسات نظرية حول السنة النبوية ومنهج فهمها، وهذه الدراسات جنحت غلوًا أو تقصيرًا، إفراطًا أو تفريطًا، أفقدها أهمية النص الشرعي الصحيح فغلبها الهوى متقلدة قصورًا في الفهم وانحرافًا في العمل.

3 ـ يضاف إلى ذلك بعض الدراسات التي جنحت بالسنة النبوية إلى عقول الرجال فحكّمت هذه العقول على السنة النبوية، فأصبحت حاكمة عليها، ونتج عن ذلك فتاوى وآراء وأحكام ضلت الطريق المستقيم في فهم السنة النبوية فالممارسات الخاطئة هي نتيجة الفهم المنحرف فعادت بالنتائج السلبية، وإن كان هذا المنهج قد وجد قديمًا عند المعتزلة وغيرها من الفِرق الضالة، إلا أنه يتجدد في كل عصر بأشكال وأنماط مختلفة فتوجب على أهل الاختصاص أن يدلوا بدلوهم موضحين وناقدين.

4 ـ وأمر رابع ما حصل من الخلط في مفهوم السنة النبوية؛ إذ من المعلوم أن السنة لفظ مشترك بين سائر العلوم الشرعية، ـ كما

سيأتي توضيحه وبيانه ـ كما أن لفظ السنة لفظ أخذ حظًّا وافرًا من الدراسات الاستشراقية التي نحت مناحي تستدعي الوقوف والتأمل والنظر.

5 ـ على مدار التاريخ والسنة النبوية تواجه غزوًا مركزًا أخذ أشكالًا وأنماطًا متعددة ومختلفة، ومن ذلك القدح في ناقليها، والتعرض لقواعدها، أو تأويل نصوصها، أو جحدها وهذا يتطلب التوضيح والبيان.

6 ـ ظهور الاهتمام بالسنة النبوية دراسة علمية نظرية وتطبيقية، واهتمامًا من فئات من الأمة وبخاصة الشباب في تطبيق السنة، وهي خطوة رائدة مما تستدعي الوقوف والتأمل لتبيُّن المنهج السليم في الفهم والتطبيق حتى لا تزل القدم، وينحرف النهج.

7 ـ هذه الدواعي يضاف إليها داعٍ أساس وهو ما يمليه الواجب الشرعي لتذاكر الدراسات التطبيقية والمعينة على نشر هذه السنة، والأجر العظيم، والثواب الجزيل العاجل والآجل، المتمثل بقوله ﷺ ـ في الحديث المتواتر ـ «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها، فأدّاها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع» وفي رواية: «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»(1).

---

(1) روى البخاري بلفظ «ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه» في كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع» (67) وفي الحج، باب الخطبة أيام منى (1741) وفي الأضاحي، باب من قال: الأضحى يوم النحر (5550) وفي الفتن، باب قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» (7078)، وفي التوحيد، باب قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (7447)، وأبوداود في العلم، باب فضل نشر العلم (3660)، والترمذي في العلم، باب ما

هذه هي الدواعي الباعثة لهذه الدراسة، أعتقد أن واحدًا منها كافٍ للبحث والمناقشة والدراسة، فكيف باجتماعها جميعًا.

وقبل بيان عناصر هذه الدراسة أشير إلى أن هذه المحاولة فردية في جزء مما نعايشه في الوقت الحاضر لعلّها تكون لبنة سليمة في هذا البناء المتواصل منذ عصر الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة، ولعل هذه اللبنة تجد من يغذيها من أهل العلم والاختصاص، فكما أشرت أن الواجب كبير، والمسئولية عظيمة.

□□□□□

جاء في الحث على تبليغ السماع (2656)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلّغ علمًا (230).

عناصر الدر

التمهيد ويتضمن عدة نقاط :

- **الأول:** تعريف السنة النبوية وأهميتها ومكانتها والحثّ على فهمها والعلم بها، وتشمل:

1 ـ تعريف السنة.

2 ـ أهمية السنة النبوية.

3 ـ مكانتها من الكتاب العظيم وحجيتها.

4 ـ الحثّ على فهمها والعمل بها، والدعوة إلى تطبيقها في جميع ميادين الحياة.

- **الثاني:** لمحات علمية من جهود السلف في خدمة السنة النبوية.
- **الثالث:** القواعد العامة لفهم السنة النبوية وتطبيقها.
- **الرابع:** مخالفات منهجية في فهم السنة النبوية، والعمل بها، وأسباب الوقوع فيها.
- **الخامس:** الخاتمة والتوصيفات.

أما المنهج الذي سرت عليه فهو:

1- قدمت لهذه القواعد بتمهيد بينت فيه التعريفات وجهود السلف في خدمة السنة النبوية.

2- جمعت هذه القواعد المنهجية في وحدة واحدة تنتظم في ثمان قواعد.

3- كل قاعدة تكوّن خطوة منهجية في الفهم أو العمل.

4- إن القاعدة تفتتح في بيانها بإيجاز، ثم التفصيل فيها، والتدليل أو التعليل لها مع بيان الأمثلة الموضحة لها.

5- حاولت تفقيط القاعدة وتجزئتها لتكون أقرب إلى التصور المراد بيانه، ثم لخصت المراد في ختام القاعدة.

6- حاولت الاقتصار على المراد متجنبًا التطويل أو الإسهاب لئلا ينحرف المسار، ومن أراد التفصيل في أي جزئية أو مسألة فيرجع لها في مظانها.

7- حاولت أن تكوّن هذه القواعد بمجموعها منهجًا متكاملًا لفهم السنة النبوية.

8- بينت عقبها الآثار الإيجابية المتوخى من العمل بهذه القواعد.

9- نوهت – بإيجاز سديد – لأهم المناهج المخالفة للعمل بهذه القواعد. وأسباب هذه المخالفات.

10- وجعلت الخاتمة تمثل عناصر منهج الفهم بإيجاز، ثم بعض التوصيات العامة لطلاب العلم.

وبعد: فهذا ما أردت بيانه وتوضيحه، وأؤكد على أن هذا العمل جهد استقرائي يحتاج إلى التصويب والمراجعة والزيادة والتسديد، ولا أعدم بإذن الله من يصحح ويصوب ويوجه فذلك من التعاون على البر والتقوى وله مني الدعاء والشكر، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله من العلم النافع في الحياة، ومن المدخر بعد الممات، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه
أ. د. فالح بن محمد بن فالح

الصغيّر

المشرف العام على موقع شبكة السنة وعلومها

faleh@alssunnah.com

☼☼☼☼☼☼

التمهيد، وفيه:

1- تعريف السنة وأهميتها
2- جهود السلف في خدمة السنة

السنة

المبحث **الأول:**

السنة النبوية ـ تعريفها[1] أهميتها ـ مكانتها ـ الحث على فهمها

أولاً: تعريف السنة :

السنة لغة: السنة من الفعل الثلاثي سنّ، تقول: سنّ يسنّ ويسُنّ.

وللسنة عدة معان :

أشهرها: السيرة والطريقة محمودة؛ كانت أو مذمومة، ومنه قول الرسول ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» [2].

وإنما تطلق على الطريقة التي عمل بها الناس الواحد بعد الآخر، ومن عمل شيئًا ليقتدى به قيل له. إنه سنّ.

قال الشاعر:

كـأنـي سننـت الـحب أول عـاشق

مـن النـاس إذا أحببت بدينـهم وحـدى

ومن معانيها: الصقل والتزيين، يقال: سنّ الشيء يسنّه سنًّا، أي صقله وزينه.

---

[2] () رواه مسلم برقم (1017)، في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، والترمذي برقم(2674)، في العلم، باب فيمن دعا إلى هدى فاتبع أو إلى ضلالة...

ومن المسن والسنان: الحجر الذي يسن به أو يسن عليه.

قال ذو الرمة:

تُـريـكَ سُنَّـةَ وجـهٍ غيـرَ مُقرفةٍ

مـلساء لـيس بهـا خالٌ ولا ندبُ[3]

في الاصطلاح: السنة لفظ مشترك بين سائر العلوم الشرعية، فقد استعمله علماء الحديث كما هو الأصل، واستعمله علماء الفقه والأصول، والعقيدة، كما استُعمل في التداول بين العامة.

وقد ورد ذكر هذا اللفظ أيضًا في القرآن الكريم، وفي الحديث النبوي، أورد هذه التعريفات مع بيان مصدر الفروق بينها بشيء من الإيجاز.

السنة في القرآن والحديث

وردت السنة في القرآن الكريم في مواضع عدة، وتدور حول معنى الطريقة، فمن ذلك:

قوله تعالى: 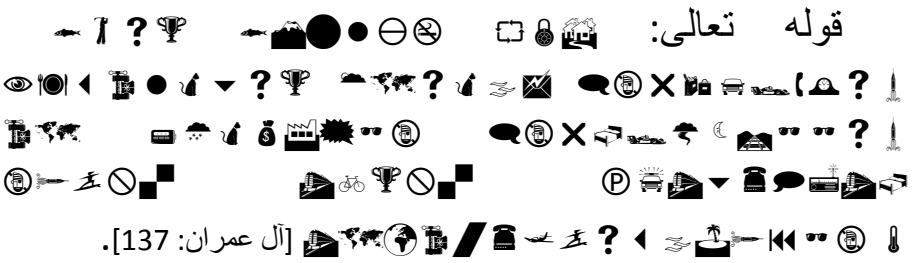 [آل عمران: 137].

قال ابن كثير: (أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من

---

[3]() ينظر: لسان العرب (3/2،3) وما بعدها.

قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم، والدائرة على الكافرين) (4).

وقوله تعالى: [النساء: 26].

قال ابن كثير: (يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها) (5).

وقوله تعالى: 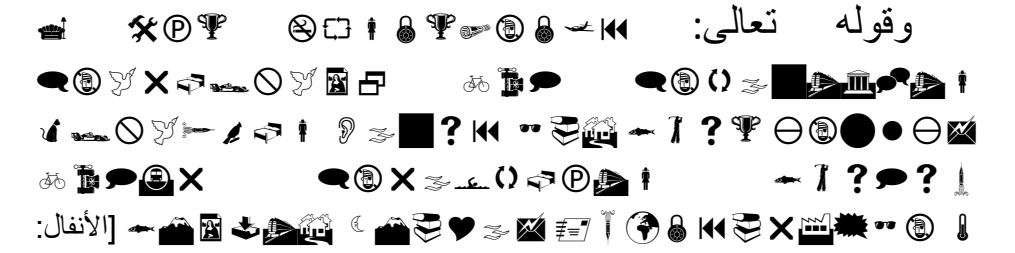 [الأنفال: 38].

قال ابن كثير: (أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم فإنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة) (6).

كما ورد لفظ السنة في القرآن الكريم وكذلك ورد في أحاديث النبي ﷺ، ويراد به الطريقة أيضًا: مثل ما جاء في حديث

---

(4) تفسير ابن كثير في سورة آل عمران آية: 137.
(5) تفسير ابن كثير في سورة النساء آية: 26.
(6) تفسير ابن كثير في سورة الأنفال أية: 38.

العرباض بن سارية ط: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي...»[7]. أي طريقتي وشرعتي، وهكذا في كل ما ورد في الحديث من لفظ السنة.

السنة في اصطلاحات العلماء

اختلف إطلاق العلماء لمصطلح السنة، وسبب الاختلاف يدور حول الغرض المقصود الذي تعنى به كل فئة من العلماء عند إطلاقهم للفظ السنة.

فالسنة عند المحدثين: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية أو خَلقية[8].

فنلاحظ هنا: أن هذا التعريف اشتمل على كل ما يتعلق بشخصية الرسول ﷺ من جميع جوانبها، ومن ذلك:

فالقول هو أكثر ما ورد عن النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[9].

الفعل: ما نقله الصحابة من أفعاله: كالصلاة، والصيام، والحج، والأخلاق، والتعامل وغيرها.

---

[7]() رواه أبوداود في السنة، باب في لزوم السنة (4607)، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة (2676)، وابن ماجه في المقدمة، باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (42)، والدارمي في المقدمة، باب إتباع السنة (95).

[8]() ينظر كتاب توجيه النظر إلى أصول أهل الأثر ص(2)، والسنة قبل التدوين ص(16).

[9]() أخرجه البخاري في بدء الوحي(1)، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وفي الأيمان والنذور (6689)، باب النية في الأيمان، ومسلم في الإمارة (1907)، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية».

التقرير وهو: ما أقره النبي ﷺ من أفعال الصحابة سواء كان بسكوته عليه الصلاة والسلام، أو بإظهار استحسان له أو تأييد، مثل: اجتهاد الصحابة في صلاة العصر عند ما قال عليه الصلاة والسلام يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَةَ**» فأَدْرَكَ بَعْضُهُم العَصْرَ في الطريق فقال بعضهم: لا نُصَلِّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي. لم يُرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يُعنِّفْ واحدًا منهم[10].

أما صفاته الخلْقية: كطوله ومشيه ولونه وشعره.. إلخ.

وصفاته الخُلُقية: كل ما يتعلق بشمائله وصفاته من الشجاعة والكرم والحلم والصفح وغيرها.

والسنة بهذا الاصطلاح: ترادف لفظ الحديث.

والسنة في اصطلاح الأصوليين هي: ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وبعضهم يضيف مما يصلح أن يكون دليلًا شرعيًّا[11].

أما السنة في اصطلاح الفقهاء فتعددت تعبيراتهم عنها، والمدلول واحد، فمنها: ما يثاب العبد على فعله ولا يعاقب على تركه، ومنها: كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض والواجب[12].

---

[10]() رواه البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، ومسلم في الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو وتقديم أهم الأمرين المتعارضين (1770).

[11]() ينظر: شرح الكوكب المنير (2/159 - 166)، وإرشاد الفحول للشوكاني (1/131، 132).

[12]() ينظر: الإحكام للآمدي (1/169)، وشرح الكوكب المنير (1/160).

فالتعريف الأول باعتبار الثمرة.

والتعريف الثاني باعتبار مكانها من الأحكام التكليفية الخمسة.

أما عند علماء العقيدة: فهي ما دل الدليل الشرعي عليه سواء كان هذا الدليل من القرآن أو الحديث أو من قواعد الشريعة، ومنه قوله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»[13].

فمقابل السنة بهذا الاصطلاح الوارد في الحديث البدعة، وهي: كل ما أحدث في الدين مما لم يدل عليه دليل شرعي.

وهكذا اشتهر عند السلف، ومنه جاءت تسمية أهل السنة والجماعة، ومنه وصف صاحب المعتقد السليم أنه صاحب سنة.

يقول العلامة ابن رجب رحمه الله: (وكثير من العلماء المتأخرين يخص اسم السنة بما يتعلق بالاعتقاد، لأنها أصل الدين والمخالف فيها على خطر عظيم) [14].

ويقول أيضًا: (والسنة هي الطريق والسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة ولهذا كان قديمًا لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله) [15].

---

[13]() تقدم تخريجه.

[14]() ينظر: جامع العلوم والحِكم لابن رجب ص(232).

[15]() جامع العلوم والحِكم، ص(230).

والخلاصة: أن السنة في الاصطلاح العلمي الشرعي يُرجع فيها إلى أهل الاختصاص فيها.

أما في التداول العام وهو المطلق عليه عند السلف، والذي تضمنته كتبهم وتقريراتهم فإنه الدين الذي شرعه الله تعالى واقتفاء هدي محمد ﷺ.

والمراد هنا في هذا البحث هو السنة بإطلاق المحدثين.

ثانيًا: أهمية السنة النبوية وحجيتها:

للسنة النبوية أهمية عظمى في دين الله تعالى مما يجعلها حجة في الاعتقاد والتشريع.

ويمكن أن تلخص هذه الأهمية بما يلي:

1 ـ أن السنة النبوية هي التفسير العملي للقرآن الكريم، وهي التطبيق الواقعي للدين، فقد كان النبي ﷺ يقيم حياته على ما ينزل من عند الله تعالى من القرآن الكريم، فيراه الصحابة فيمتثلون أمره، وإذا ما احتاجوا إلى توضيح أمر أو استفسار ما غمض عليهم بيّنه ﷺ لهم كما أنه القدوة في أحواله وأفعاله، فقد تمثل القرآن الكريم بأكمله في حياته العلمية، وقد أمر الله تعالى بالأخذ بما جاء به سواء كان قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، قال الله تعالى: [الحشر: 7].

وسئلت عائشة ك عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه

القرآن[16] بمعنى أنه يتمثل القرآن الكريم في جميع شؤون حياته فلا يحيد عنه قيد أنملة.

وحياة الرسول ﷺ في جميع جوانبها تطبيق لهذا المبدأ، فحمل في حياته العلمية أمانة البيان وصدق التطبيق فجاءت مقررة ومؤكدة لما جاء في القرآن الكريم كالأحاديث العديدة التي تدل على فرضية، ووجوب الصلاة والصيام والحج وغيرها والأحاديث التي تحرم أكل الربا والزنا والقتل وسائر المحرمات، وتوضح المشكل من ذلك.

قال ﷺ في شأن الصلاة كما ثبت في صحيح البخاري: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[17] بعد أن صلى لهم صلاة بين فيها مواقيت الصلاة وعدد ركعاتها وواجباتها، ومثله ما يرد في تفصيل فرض الصيام والحج والزكاة، وجاءت السنة مخصصة للعام من القرآن كقول الله تعالى في ميراث الأولاد والآباء والأمهات: [النساء: 11] فجاءت السنة بتخصيص القاتل من الأولاد ومنعته وحرمانه من الميراث كما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ فجاء في الصحيح قول النبي ﷺ «ليس لقاتل ميراث»[18].

---

[16] () جزء من حديث طويل رواه مسلم في صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض(746) والنسائي في قيام الليل، باب قيام الليل (1602).

[17] () جزء من حديث أخرجه البخاري عن مالك في كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة (631).

[18] () رواه ابن ماجه في كتاب الديات، باب القاتل لا يرث (2646).

وجاءت مقيدة لمطلق القرآن كتحديد قطع يد السارق في قوله تعالى: (ث ذ ذ ث) [المائدة: 38] فجعلت القطع من الرسغ[19]، وهكذا.

2- إن دراسة السنة النبوية وفهمها وتطبيقها من طاعة الله التي تضافرت النصوص القرآنية بها ـ كما سيأتي تفصيله في المبحث الآتي ـ.

فدراسة السنة طاعة لرسول الله ﷺ، وطاعة الرسول من طاعة الله، قال سبحانه: 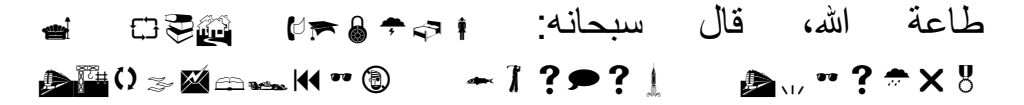 [النساء: 80]. وهذه غاية وجود العباد في هذه الحياة الدنيا، فالعالم العامل بالسنة يصل إلى هذه الغاية.

3- ومن أهمية السنة أنها بينت أحكامًا لم ينص عليها القرآن الكريم كتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها، كما جاء في حديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها»[20] وكذلك ما جاء في تحريم الأمهات والأخوات من الرضاعة، وجاء في السنة تحريم غير الأمهات والأخوات بقوله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه

---

[19]() ذكر البخاري معلقًا أن عليًّا ط قطع من الكف، في كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: (ثذذ ث).

[20]() رواه البخاري في كتاب النكاح، باب لا تنكح المرأة على عمتها (5109)، ومسلم في كتاب النكاح، باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها (1408).

البخاري: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»[21].

وعلى ذلك فالسنة النبوية حجة في الشريعة ومصدر من مصادرها الأساس فهي صنو القرآن الكريم في الأهمية والحجية.

فجميع ما ذكر من الأدلة السابقة وما سيأتي سواء من القرآن الكريم أو السنة النبوية كلها تدل دلالة واضحة على حجية السنة النبوية وأنها مصدر أساس من مصادر التشريع الإسلامي وكونها أصلًا من أصول الدين تقوم به الحجة على كل مكلف، فهي والقرآن متلازمان يكمل بعضها بعضًا، ولنأخذ أمثلة من هذه الأدلة السابقة:

1 ــ من القرآن الكريم :

o قوله سبحانه وتعالى: [illegible] [الحشر: 7] دليل صريح على أن ما جاء به الرسول ﷺ مصدر قائم بذاته.

وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة الرسول ﷺ فقال سبحانه: [illegible] [الأنفال: 20]، وقوله: [illegible]

[21] () رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع (2645)، ومسلم في كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، (1447).

[النساء: 65].

- وقوله سبحانه في التحذير من المخالفة لما أمر الله به ورسوله:

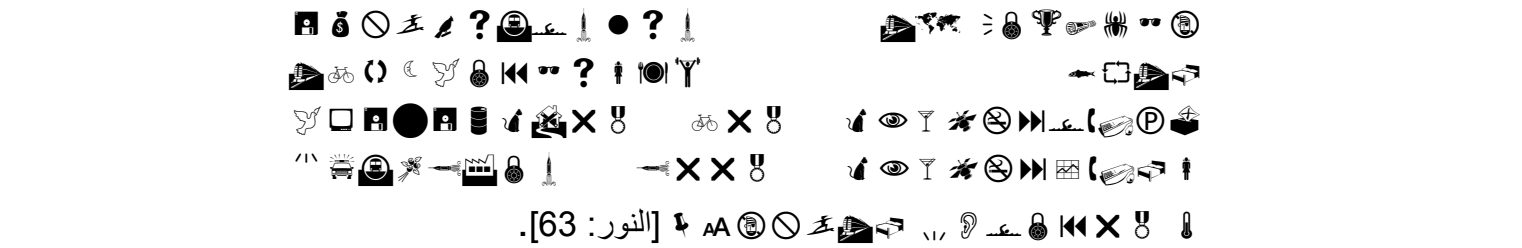

[النور: 63].

2 ـ من السنة :

قد ثبت أن توجيه النبي ﷺ لأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين بتبليغ هديه مع وعي ما يبلغهم إياه ليؤكد أهمية السنة ومكانتها.

فعن زيد بن ثابت ط قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وبلغها من لم يسمعها، ثم ذهب بها إلى من لم يسمعها، ألا فرب حامل فقه لا فقه له، ورب

حامل فقه إلى من أفقه منه»([22]).

وقد حذَّر النبي ﷺ من الإعراض عن السنة بدعوى الاقتصار على القرآن الكريم، وذلك بقوله ﷺ في حديث أبي رافع: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر في أمري مما أمرت به ونهيت عنه يقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»([23]).

وهنا إشارة أن طاعة الرسول ﷺ بعد مماته إنما تكون بالاتباع والسير على المنهج الذي وصفه لأمته ولا يلتفت إلى دعوى أهل الزيغ في التشكيك بسنته ﷺ والعمل على حرف الأمة عن النصوص التي هي قوام هذا الدين العظيم سواءً كان بالتشكيك فيه أو بالتأويل الذي يخرجه عن حقيقته.

وسبق أيضًا حديث العرباض بن سارية: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ...» الحديث.

3 - الإجماع :

أجمع علماء الأمة على حجيتها واعتبارها مصدر أساس من مصادر التشريع الإسلامي، وهي حجة كالقرآن الكريم.

يقول الشافعي :: (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة

---

[22]() رواه أبوداود في العلم برقم (3660)، والترمذي في العلم برقم (2656)، وابن ماجه في المقدمة برقم(230).

[23]()الشافعي في الرسالة ص(226)، والبيهقي في معرفة السنن (1/112)، وأبوداود في السنن برقم(4605)، والترمذي في العلم برقم(2663).

رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)[24]..

ويقول ابن حزم: (ومن جاءه خبر عن رسول الله ﷺ فقرأ أنه صحيح، وأن الحجة تقوم بمثله، أو قد صحح مثل ذلك الخبر في مكان آخر، ثم ترك مثله في هذا المكان لقياس، أو لقول فلان وفلان فقد خالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ واستحق الفتنة والعذاب الأليم) [25].

ويقول الشوكاني: (إن ثبوت حجية السنة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في دين الإسلام)[26].

ثالثًا: الحث على فهم السنة النبوية والعمل بها :

بناءً على ما سبق بيانه من أهمية السنة النبوية وحجيتها وعظم شأنها يتجلى لنا أهمية وضرورة فهمها الفهم الصحيح ودراستها والعمل بما جاء فيها وتطبيقها بالصورة الصحيحة.

وقد تظافرت النصوص من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة على هذا الأمر العظيم، بأساليب متعددة، مباشرة وغير مباشرة، ونستعرض هنا شيئًا من ذلك:

أولًا: النصوص القرآنية التي تحث على طاعة الرسول ﷺ واتباع سنته وفهمها والعمل بها .

1 ـ أوضح الله سبحانه وتعالى وجوب طاعة الرسول ﷺ،

---

[24]() الرسالة للشافعي ص(224).

[25]() الإحكام في أصول الدين (1/114).

[26]() إرشاد الفحول للشوكاني (1/134).

كما تجب طاعته جل وعلا، وأن طاعة الرسول ﷺ أوجب الواجبات، وأهم فروض الأعيان، بل لا يتم معرفة مراد الله تعالى إلا بطاعته.

يقول سبحانه وتعالى: [الأنفال: 20]، ويقول سبحانه: [محمد: 33]، ويقول سبحانه: [النساء: 59].

ولعظم الأمر رتّب على الطاعة الفلاح والهداية والفوز العظيم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: [النور: 54]، ويقول سبحانه: 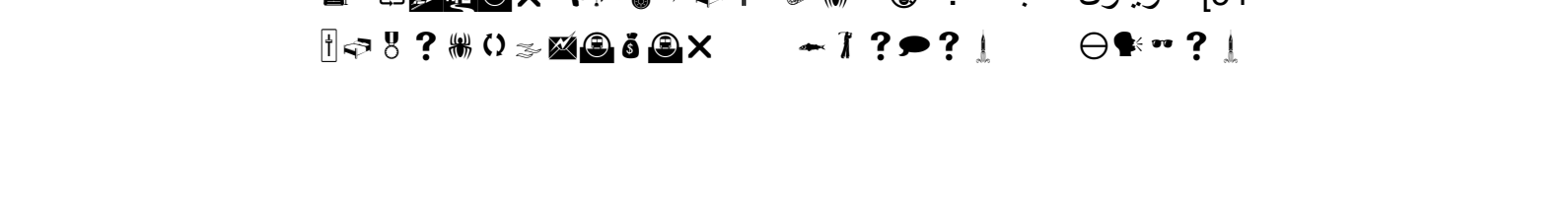

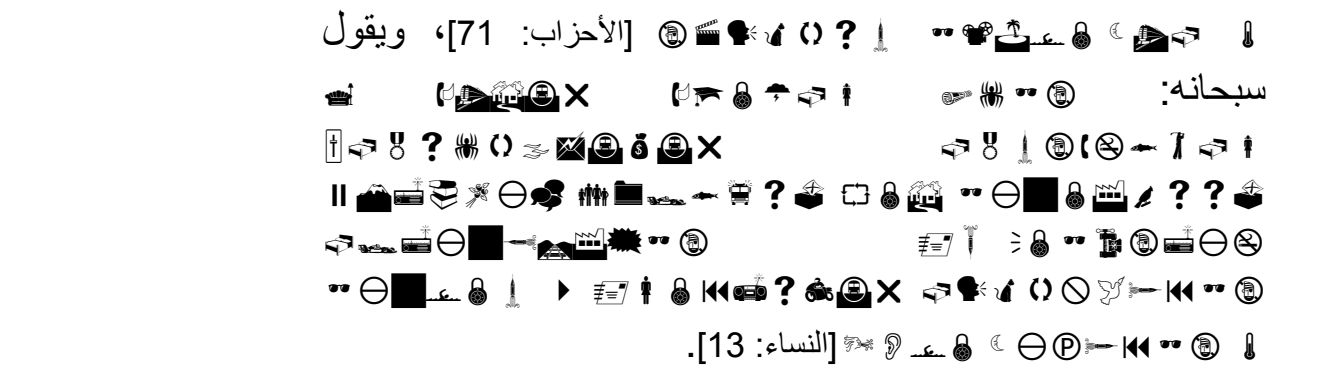
[الأحزاب: 71]، ويقول سبحانه:

[النساء: 13].

2 ـ ذكر سبحانه الأمر الصريح بوجوب تنفيذ أوامر الرسول ﷺ، واجتناب نواهيه، قال سبحانه:

[الحشر: 7].

3 ـ التوجيه الصريح أيضًا بوجوب التأسي والاقتداء به ﷺ، قال سبحانه:
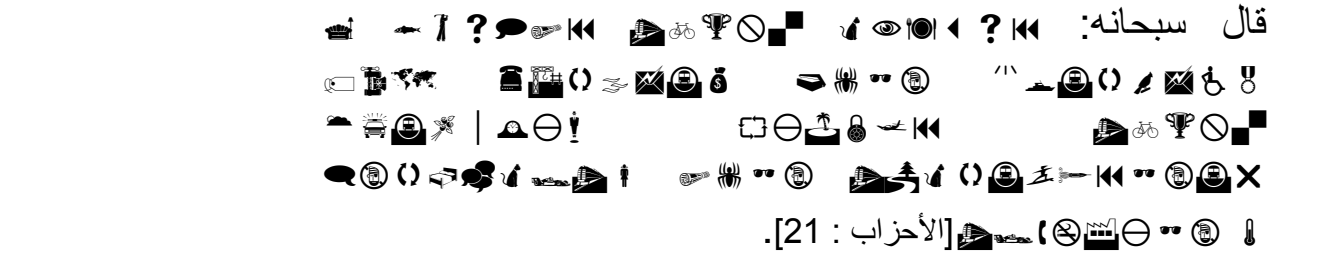
[الأحزاب : 21].

4 ـ أمر الله سبحانه وتعالى بالرجوع إليه ﷺ في حياته عند الاختلاف، وإلى سنته وحكمه بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، ويجب أن يكون ذلك الرجوع بنفس مطمئنة راضية، وبدون حرج أو تململ أو تلكؤ، ولا شك أن هذا التوجيه يحتم دراسة هذه السنة وفهمها وتطبيقها، قال تعالى:

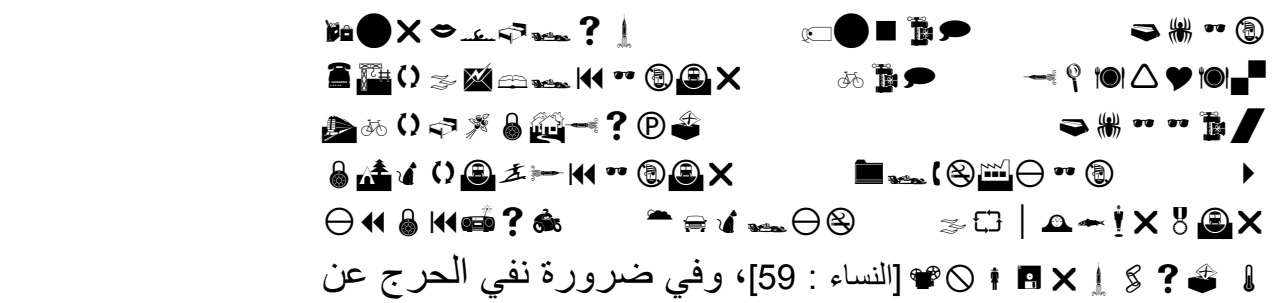
[النساء : 59]، وفي ضرورة نفي الحرج عن النفس حال الرجوع يقول سبحانه:
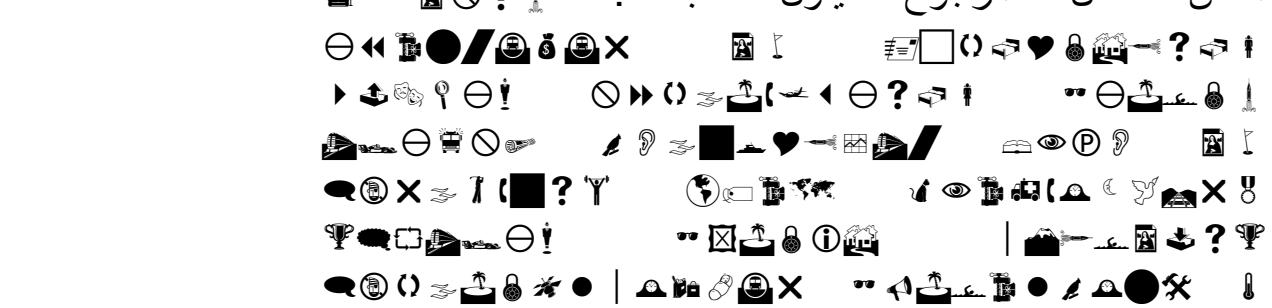
[النساء : 65].

قال العلامة ابن القيم :: (أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان عن العباد حتى يحكموا رسوله صلى الله عليه وسلم في كل ما شجر بينهم من الدقيق والجليل، ولم يكتف في إيمانهم بهذا التحكيم بمجرده حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق عند قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضًا بذلك حتى يسلموا تسليمًا، وينقادوا انقيادًا) [27].

5 ـ وهو مبني على ما سبق لكنه يؤكد قوة التسليم فيضفي قوة على وجوب الإتباع، قال تعالى:
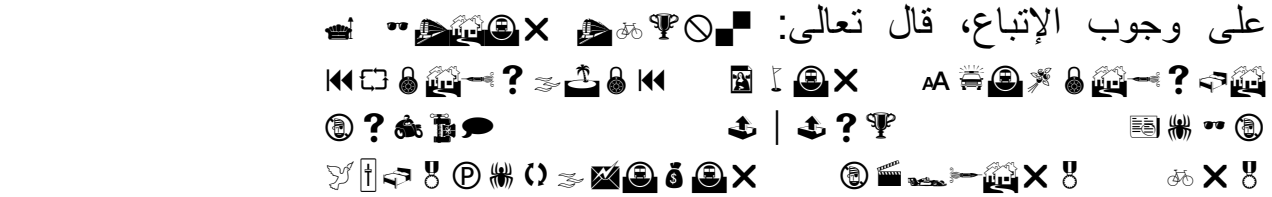

---

[27] () إعلام الموقعين (1/40).

[الأحزاب: 36].

6 ـ ذكر سبحانه التحذير الشديد لمن يخالف أمر النبي ﷺ ولا يتبعه، كالذين يخالفون أوامره، أو يرتكبون نهيه، أو يصدون عن سنته، أو يطعنون فيها، أو يؤولونها تأويلات بعيدة عن هديه ﷺ، يقول سبحانه:

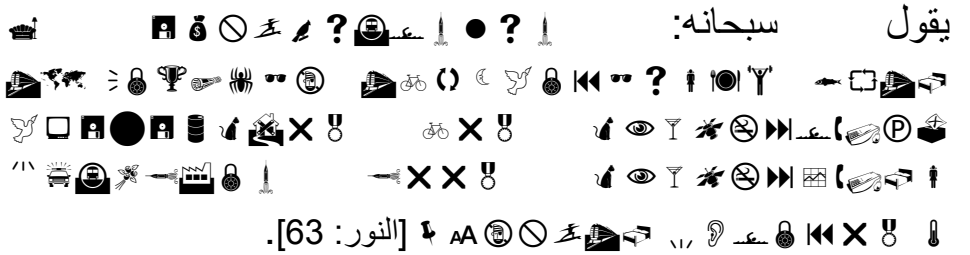
[النور: 63].

7 ـ ومع هذا التحذير فقد وسم أصحاب تلك المخالفات بالمنافقين وتوعدهم الوعيد الشديد أيضًا، قال تعالى:

[النساء : 60 – 63].

يقول العلامة ابن القيم : معلقًا على ما سبق من الآيات: (إن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكّم الطاغوت وتحاكم إليه، والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدون من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) ([28]). ا.هـ.

8 ـ وجه آخر يستشهد به على ضرورة طاعته، وهو بيان هداية

---

[28]() إعلام الموقعين (1/50).

المتبع له لخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: 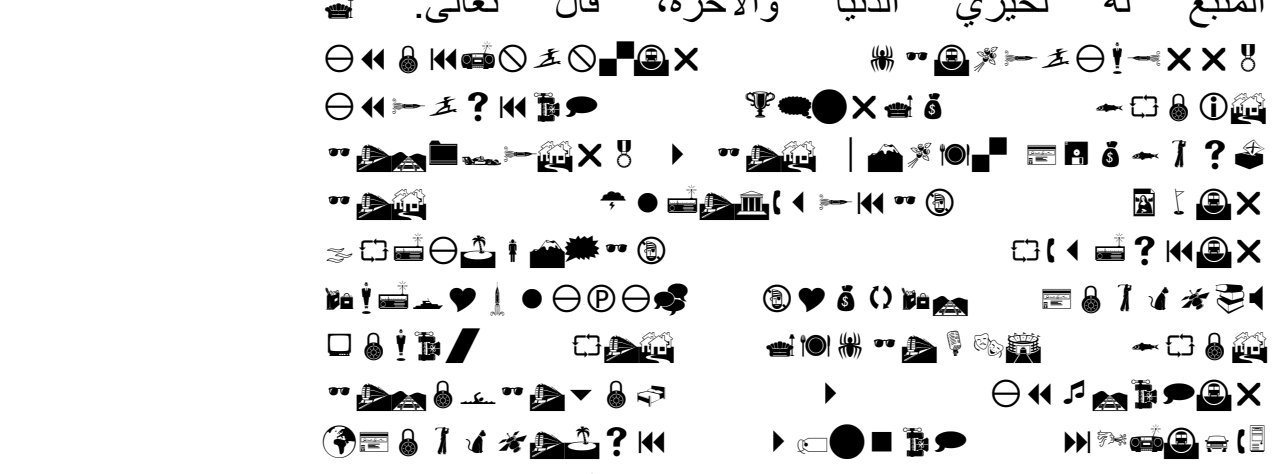
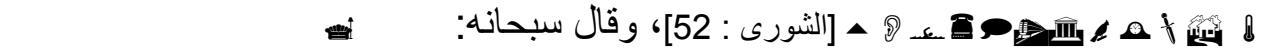
[الشورى : 52]، وقال سبحانه: 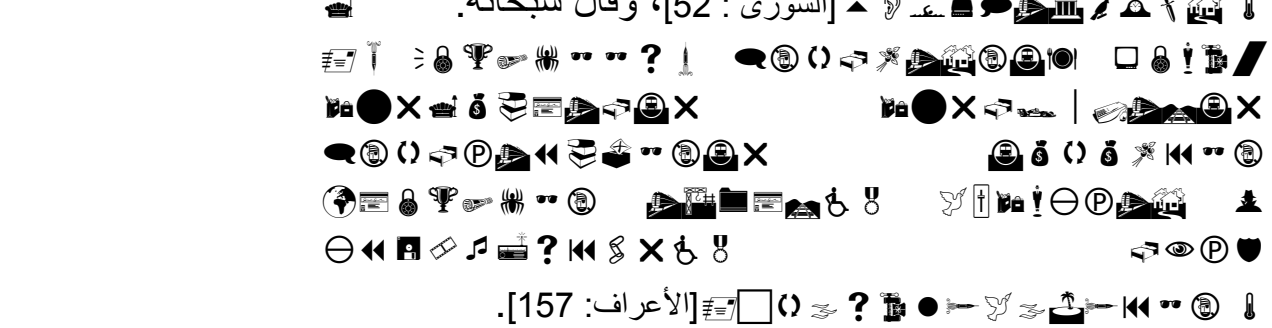

[الأعراف: 157].

9- ومن ذلكم أن الله سبحانه علّق محبته على اتباع هديه ﷺ، وهذا من أعظم الأدلة وأوضحها على وجوب طاعته واتباع هديه، وفهم سنته، قال تعالى: 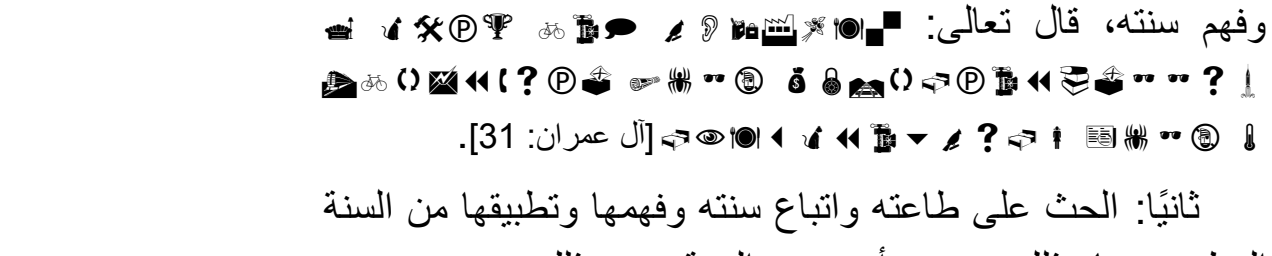

[آل عمران: 31].

ثانيًا: الحث على طاعته واتباع سنته وفهمها وتطبيقها من السنة المطهرة، جاء ذلك من عدة أوجه من السنة، ومن ذلك:

1 ـ الحث على طاعته صراحة، وأنها من طاعة الله تعالى، وهذا

يحتم ضرورة فهمها وتطبيقها، روى البخاري وغيره عن أبي هريرة ط أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[29]. فنلحظ هنا تعليق دخول الجنة ـ وهي الغاية العظمى التي يسعى إليها ـ على طاعته واجتناب معصيته.

2 ـ أنه جعل طاعته من طاعة الله سبحانه وتعالى، روى البخاري وغيره عن أبي هريرة ط أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[30].

3 ـ أنه جعل محبته أعظم المحاب وأعلاها، وهذه لا تكون إلا لمطاع، فيجب فهم سنته وطاعته حتى يوصل إلى هذه الغاية العظمى، روى البخاري رحمه الله عن أنس ط أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[31].

بل لا يجد طعم الإيمان إلا من اتصف بهذه الصفة، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

---

[29]() أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (7280).

[30]() أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به(2957) مسلم واللفظ له في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (1835).

[31]() أخرجه البخاري في الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (15)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة (44).

أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...» الحديث[32].

وبلا شك أن هذه المحبة لا تكمل إلا بطاعته صلى الله عليه وسلم: [illegible] [آل عمران: 31].

4 ـ الحث الصريح على التمسك بسنته صلى الله عليه وسلم واتباعها والعض عليها بالنواجذ، فعن العرباض بن سارية ط قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ذات يوم، ثم أقبل علينا، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منا القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًّا، فإن من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[33].

يقول ابن رجب :: (وهذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بما يقع في أمته بعده من كثرة الاختلاف في أصول الدين وفروعه وفي الأعمال والأقوال والاعتقادات، وهذا موافق لما روي عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة، وأنها كلها في النار إلا واحدة، وهي ما كان عليه هو وأصحابه، ولذلك في هذا الحديث أمر عند الافتراق والاختلاف

---

[32]() أخرجه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان (16)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (43).

[33]() أخرجه أبوداود في السنة، باب في لزوم السنة (4607)، والدارمي في المقدمة، باب اتباع السنة (95).

بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، والسنة هي: الطريق المسلوك فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال الأقوال، وهذه هي السنة الكاملة)[34].

5 ـ في مقابل الطاعة حذر عليه الصلاة والسلام من مخالفته، أو التقول عليه، أو إحداث أمر في الدين من غير ما جاء به ﷺ، وهذا كله يوجب فهم سنته واتباعها على الوجه السليم، روى مسلم وغيره عن عائشة ك أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[35]. وفي رواية: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[36]. وروى البخاري ومسلم في التحذير عن مخالفة السنة عن أنس ط أن رسول الله ﷺ قال: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[37].

6 ـ وكأن الرسول ﷺ يستقرئ الزمن القادم بالنسبة له، من أن أناسا سيرفضون هذه السنة المباركة ويكتفون بالقرآن فيحذر عليه الصلاة والسلام من هذا المسلك الخطير المشين الذي يترتب عليه عدم اتباع السنة وفهمها عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال

---

[34]() ينظر جامع العلوم والحكم ص(23).

[35]() أخرجه مسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (1718).

[36]() أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (2697)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (1718).

[37]() أخرجه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح (5063)، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (1401).

فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمر الأهلية ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه»([38]).

يقول الخطابي :: (يحذر بذلك من مخالفة السنة التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن، وتركوا السنن التي تضمنت بيانا للكتاب فتحيروا وضلوا)([39]).

7 ـ حث الرسول ﷺ على تبليغ سنته ونشرها بين الناس، وعلى تعلمها وتعليمها، فقال عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني ولو آية»([40]).

ودعا رسول الله ﷺ بالنضارة في الدنيا والآخرة لمن اهتم بالسنة ونشرها كما في الحديث المتواتر: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع»([41]).

وقد بين النبي ﷺ في بيانه رائعة يقول فيها ﷺ: «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن سمع منكم»([42]).

---

[38]() أخرجه أبوداود في السنة، باب في لزوم السنة (4604)، والترمذي في العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث رسول الله ﷺ (2664)، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه (12).

[39]() معالم السنن.

[40]() أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (3461).

[41]() تقدم تخريجه.

[42]() رواه أبو داود من حديث ابن عباس في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم (3659).

وهكذا ترك رسول الله ﷺ أمته على البيضاء ليلها كنهارها فبلغ رسالة ربه وأداها حق الأداء وأوضح لصحابته ومن جاء بعدهم القويم [illegible] [يوسف: 108].

كل هذا يدل دلالة واضحة على الحث على فهم السنة والعمل بها، ومواصلة ذلك.

رابعًا: حال السلف مع السنة :

لقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ضرورة الالتزام بهدي النبي ﷺ. وهم الذين عاصروا التنزيل وعايشوه فما حادوا عن أمره ونهجه ﷺ وقفوا حيث وقف وساروا حيث سار يقول ابن عمر ط فيما: (إني ألفيت أصحابي على أمر، وإني إن خالفتهم خشيت ألا ألحق بهم)[43].

وهذا معاوية ط لما طاف بالبيت قَبَّل الأركان كلها، فأنكر عليه ابن عباس م فقال: ليس شيء من البيت مهجورًا، فقال ابن عباس م : إنما هي السنة[44] فأنكر عليه الزيادة على فعل النبي ﷺ فالله سبحانه وتعالى لا يعظم الأعمال لكثرتها إلا أن تكون على منهج رسول الله ﷺ موافقة للسنة، وإن حسن العمل ما كان موافقًا للسنة.

---

[43]() مصنف ابن أبي شيبة (3/326).

[44]() رواه الترمذي وصححه برقم (858)، وأحمد برقم (1880)، ذكره البخاري في ترجمة باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين، من كتاب الحج.

وسار على هذا الهدي سلفنا الصالح أهل القرون المفضلة يحملون هذا العلم ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ظهر ذلك جليًا في منهجهم نقل الخطيب في كتابه الفقيه والمتفقه، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في المدخل إلى السنن: (أن رجلًا قال للإمام مالك بن أنس: من أين أحرم؟ قال: من حيث أحرم رسول الله ﷺ قال: فإن زدت على ذلك؛ قال: فلا تفعل فإني أخاف عليك الفتنة قال: وما في هذه من الفتنة، إنما هي أميال أزيدها. قال: فإن الله تعالى يقول: 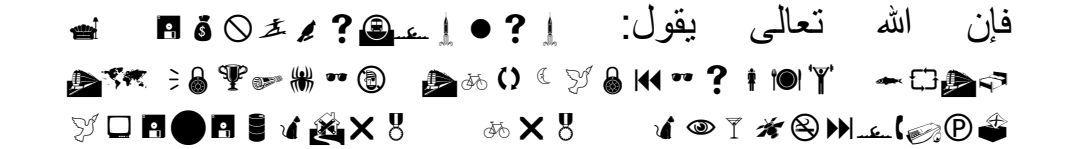 [النور : 63] قال: وأي فتنة في هذا؟ قال مالك: وأي فتنة أعظم من أن ترى أن اختيارك لنفسك خير من اختيار رسول الله ﷺ، وقد بين الله تعالى مآل من يحيد عن هديه وسنته، فقال: [النساء: 115].

جاءت الجدة إلى الصديق ط تسأله عن ميراثها، فقال لها: ليس لك في كتاب الله شيء، ولا أعلم أن رسول الله ﷺ قضى لك بشيء وسأسأل الناس ثم سأل ط الصحابة فشهد عنده بعضهم بأن النبي

ﷺ أعطى الجدة السدس فقضى لها بذلك[45]، وكان عمر ط يوصي عماله أن يقضوا بين الناس بكتاب الله، فإن لم يجدوا القضية في كتاب الله فبسنة رسوله ﷺ[46]، ولما أشكل عليه حكم إملاص المرأة وهو إسقاطها جنينًا ميتًا بسبب تعدي أحد عليها سأل الصحابة ن عن ذلك فشهد عنده محمد بن مسلمة والمغيرة ابن شعبة م بأن النبي ﷺ قضى بذلك بغرة عبد أو أمة فقضى بذلك ط[47].

---

[45]() فعن قبيصة بن ذؤيب أنه قال: جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق تسأله ميراثها فقال: ما لك في كتاب الله تعالى شيء وما علمت لك في سنة نبي الله ﷺ شيئا فارجعي حتى أسأل الناس، فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقال محمد بن مسلمة فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة، فأنفذه لها أبو بكر. أخرجه أبوداود في الفرائض، باب في الجدة (2894)، والترمذي في الفرائض، باب ما جاء في ميراث الجدة (2100، 2101) وابن ماجه في الفرائض، باب ميراث الجدة (2724)، والدارمي في الفرائض، باب قول أبي بكر في الجدات (2937)، ومالك في الموطأ ، كتاب الفرائض، باب ميراث الجدة (1098).

[46]() فعن شريح أن عمر بن الخطاب كتب إليه إن جاءك شيء في كتاب الله فاقض به، ولا تلفتك عنه الرجال، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ﷺ فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن في سنة رسول الله ﷺ ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد رأيك ثم تقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر، ولا أرى التأخر إلا خيرًا لك. انفرد بتخريجه الدارمي في المقدمة، باب الفتيا وما فيه من الشدة (167).

[47]() فعن المغيرة بن شعبة قال: سأل عمر بن الخطاب عن إملاص المرأة هي التي يضرب بطنها فتلقي جنينًا فقال: أيكم سمع من النبي ﷺ فيه شيئا؟ فقلت: أنا فقال: ما هو؟ قلت: سمعت النبي ﷺ يقول: فيه غرة عبد أو أمة. فقال: لا تبرح حتى تجيئني بالمخرج فيما قلت، فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد معي أنه سمع النبي ﷺ يقول: فيه غرة عبد أو أمة. رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى.. (7317، 7318)، ومسلم في الحدود، باب دية الجنين، ووجوب الدية فيقتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني (1683).

ولما أشكل على عثمان ط حكم اعتداد المرأة في بيتها بعد وفاة زوجها وأخبرته فريعة بنت مالك بن سنان أخت أبي سعيد م أن النبي عليه الصلاة والسلام أمرها بعد وفاة زوجها أن تمكث في بيته حتى يبلغ الكتاب أجله قضى بذلك ط[48]، وهكذا قضى بالسنة في إقامة حد الشارب على الوليد بن عقبة[49]، ولما بلغ عليا ط أن عثمان ط ينهى عن متعة الحج أهلّ علي ط بالحج والعمرة جميعًا، وقال: لا أدع سنة رسول الله ﷺ بقول أحد من الناس[50]، ولما احتج بعض الناس على ابن عباس ط في متعة الحج بقول أبي بكر وعمر م في تحبيذ إفراد الحج قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر[51]. فإذا كان من خالف السنة بقول أبي بكر وعمر يخشى عليه العقوبة فكيف بحال من خالفها لقول من دونهما أو لمجرد رأيه واجتهاده، ولما نازع بعض الناس عبد الله بن عمر م في بعض السنة قال له عبد الله: هل نحن مأمورون باتباع عمر؟ ولما قال رجل لعمران بن حصين م حدثنا عن كتاب الله وهو يحدثهم عن السنة غضب ط وقال: إن السنة هي تفسير كتاب الله، ولولا السنة لم نعرف أن الظهر أربع والمغرب ثلاث، والفجر ركعتان، ولم نعرف تفصيل أحكام الزكاة؛ إلى غير ذلك مما جاءت به السنة من تفصيل الأحكام والقضايا عن الصحابة ن

---

[48]() أخرجه أحمد في باقي مسند الأنصار، برقم(26547).

[49]() أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة، برقم (3872).

[50]() أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب التمتع والقران والإفراد بالحج، وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي، برقم (1563)، والنسائي، كتاب مناسك الحج، باب إفراد الحج، برقم (2723، 2724)، وأحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة، برقم(1143).

[51]() رواه أحمد في مسنده، برقم(3111).

في تعظيم السنة ووجوب العمل بها والتحذير من مخالفتها وهي كثيرة جدًّا.

ومن ذلك أيضًا أن عبد الله بن عمر م لما حدث بقوله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[52].

قال بعض أبنائه: والله لنمنعهن فغضب عليه عبد الله وسبه سبًّا شديدًا وقال: أقول: قال رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن. ولما رأى عبد الله بن المغفل المزني ط وهو من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام بعض أقاربه يخذف، نهاه عن ذلك وقال له: إن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن الخذف وقال: «إنه لا يصيد ولا ينكأ عدوا ولكنه يكسر السن ويفقأ العين»، ثم رآه بعد ذلك يخذف فقال: والله لا كلمتك أبدا أخبرك أن رسول الله ﷺ ينهى عن الخذف ثم تعود[53]، وأخرج البيهقي عن أيوب السختياني التابعي الجليل أنه قال: إذا حدثت الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن فاعلم أنه ضال[54]، وقال الأوزاعي رحمه الله: السنة قاضية على الكتاب أو تقييد ما أطلقه أو بأحكام لم تذكر في الكتاب كما في قول الله سبحانه:

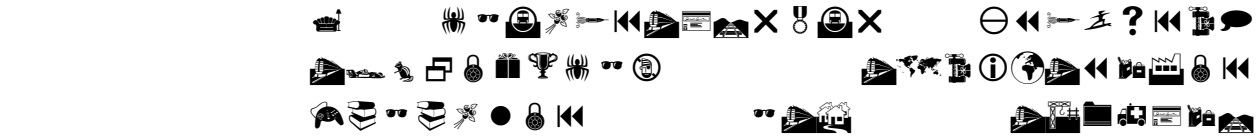

---

[52]() أخرجه البخاري في الجمعة، باب (13) رقم الحديث (900)، ومسلم في الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة وأنها لا تخرج مطيبة (442)، والدارمي في المقدمة، باب تعجيل عقوبة من بلغه عن النبي ﷺ حديث فلم يوقر ولم يعظمه.

[53]() ينظر في كل ما سبق رسالة وجوب العمل بالسنة لسماحة الشيخ ابن باز رحمه الله ص(18 - 22).

[54]() ينظر: رسالة وجوب العمل بالسنة.

[النحل: 44] (55).

من هذا كله نستخلص أهمية البحث في فهم السنة والعمل بها، وعدم مخالفتها، ومن ذلك ما يتصل بالتقعيد والمنهجية السليمة، ومن ثم الاقتداء بحال السلف الذين عملوا بالسنة في جميع شؤون حياتهم.

55() في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما جاء في اجتهاد القضاء بما أنزل الله تعالى.. (7317، 7318)، ومسلم في الحدود، باب دية الجنين، ووجوب الدية في قتل الخطأ وشبه العمد على عاقلة الجاني (1683).

المبحث الثاني:

لمحات علمية من جهود السلف في خدمة السنة النبوية

لقد حظيت السنة النبوية ـ ولله الحمد والمنة ـ بجهود علمية كبيرة منذ عصر الرسول ﷺ، ولا زالت هذه الجهود تتوالى إلى عصرنا هذا فالمشاهد اليوم أن العلوم التي تخدم السنة النبوية أصبحت ـ ولله الحمد ـ في متناول طلاب العلم ومن خلال الكليات والمعاهد بمختلف أقسامها وفروعها وقام عليها العلماء والمختصون.

هذا في الجهد الرسمي، أما الجهد المؤسسي أو الأفراد فلا زال التنافس قائمًا، كما سيأتي بسطه في نهاية هذا المبحث - إن شاء الله تعالى – .

وهنا أذكر إشارات من منطلق الحث على فهم السنة ونشرها الوارد في مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث المتواتر: «نضر الله امرءً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع»[56]ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «بلغوا عني ولو آية»[57] وفي مثل قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[58]، وذلك بشيء من الإيجاز لضرورة المقام.

من هذه المنطلقات وغيرها تسابق الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين إلى تلقي السنة وتعلمها وتعليمها ونشرها، حتى أخذ كل عصر سماته التي يتسم بها.

ففي عصر الرسول ﷺ:

كان الاهتمام في عصره عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم، حفظًا في الصدور وفي السطور، وفي بداية الأمر نهى النبي ﷺ عن كتابة غيره لئلا يختلط به، فقال -

---

[56]() تقدم تخريجه.

[57]() تقدم تخريجه.

[58]() أخرجه أبوداود في العلم، باب في فضل العلم (3641)، والدرامي في المقدمة، باب في فضل العالم والعالم (342).

عليه الصلاة والسلام -: «لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»([59]).

لكن مع ذلك سمح بالكتابة لأفراد استأذنوا فأذن لهم؛ ووجدت كتب وصحائف، ومن ذلك ما أذن فيه لأبي شاه، وعبد الله بن عمرو بن العاص ن([60]).

وفي عصر الخلفاء الراشدين:

امتدت الرقعة الإسلامية، وكثرت الفتوحات، واختلط المسلمون بغيرهم، وبدأ ظهور الخلاف والفرقة بين المسلمين.. ومع هذه العوامل وغيرها ظل الحديث سالمًا ولله الحمد من التحريف، ودخول الوضع فيه لما تميز هذا العهد من ميزات منها:

1 ـ جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر وعهد عثمان م.

2 ـ تثبت الصحابة من رواية الحديث ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

3 ـ قلة اختلاط الحديث بكلام الناس.

عصر ما بعد الخلفاء الراشدين:

لا شك أن عصر الخلفاء الراشدين ـ بظهور تلك العوامل ـ كان توطئة للاهتمام بالحديث، وعمل الجهود الحثيثة في ذلك لكن مع توسع الرقعة الإسلامية واختلاط غير المسلمين بالمسلمين احتاج المسلمون إلى تدوين حديث رسول الله ﷺ حتى لا يضيع وبخاصة وقد مات كثير من الصحابة رضوان الله عليهم.

فكان أول من شرع بذلك الإمام ابن شهاب الزهري : بأمر من الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز :، فكتب إلى عماله ومنهم أبو بكر بن حزم : أن: (انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء) فاستجاب الإمام الزهري - رحمه الله -، ثم توالت الجهود في التصنيف والتقعيد حتى جاءت المائة الثالثة فكانت زهرة التصنيف في جمع الحديث وهي التي ظهر فيها الصحاح والسنن والمسانيد.

---

[59]() أخرجه مسلم في الزهد، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، برقم (3004).

[60]() للتوسع في ذلك ينظر كتاب: (السنة قبل التدوين) و(السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وغيرها.

فاتسم هذا العصر بما يلي:

أ ـ جمع الأحاديث النبوية المسندة إلى النبي ﷺ.

ب ـ ذكر بعض أقوال الصحابة والتابعين، ويظهر هذا في المصنفات والمسانيد أكثر منها في الصحاح .

ج ـ العناية بذكر الإسناد لكل حديث.

د ـ العناية بذكر الصحيح والحسن (المقبول) وشيء من الضعيف إلا من اشترط الصحة.

هـ ـ عدم النص على الحكم في الغالب.

و ـ عدم التعليق على الأحاديث.

ز ـ عدم اختلاط الحديث بغيره من كلام الناس.

ويعد القرن الثالث الانطلاقة الكبرى في بذل مزيد من الجهود الحديثية فتنوع التصنيف والتدريس وغيرها([61]).

تلك مقدمة يسيرة عن تاريخ السنة وجهود السلف في جمعها؛ نلج من خلالها إلى جهود المحدثين في خدمة السنة وعلومها.

1 ـ جهود المحدثين فيما يتعلق بالإسناد:

الإسناد هو: الطريق الموصل للمتن، وهو الذي يبنى عليه في الغالب صحة الحديث من ضعفه، ولذلك اهتم به العلماء غاية الاهتمام منذ عهد مبكر حتى أصبح الإسناد خاصية من خصائص هذه الأمة، يقول أبو حاتم الرازي :: (لم يكن في أمة من الأمم منذ أن خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة) ([62]).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :: (وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ، وجعله سلمًا إلى الدراية، فأهل الكتاب لا إسناد لهم يأثرون به المنقولات،

---

[61]() من أراد التوسع والتفصيل فليراجع: السنة قبل التدوين للدكتور محمد عجاج الخطيب، والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي، ودراسات في الحديث النبوي للدكتور مصطفى الأعظمي وغيرها.

[62]() شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي، ص(43).

وهكذا المبتدعون من هذه الأمة، أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة أهل الإسلام والسنة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم والمعوج والقويم، ويميزهم من أهل البدع والكفار، وإنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل)([63]).

ويقول الإمام مالك :: (إن هذا العلم لحمك ودمك، وعنه تسأل يوم القيامة فانظر عمن تأخذه)([64])، والأقوال في أهمية الإسناد وبيان جهود المحدثين فيه أكثر من أن تحصر ويكتفى بما أشير إليه.

ومما ظهرت فيه جهود المحدثين في الإسناد، ما يلي:

أ ـ عنايتهم بأحوال الرواة، وتصنيفهم حسب درجاتهم من القوة والضعف، بل لا يكاد يوجد راوٍ إلا والبلاغ عنه حاصل، والمصنفات في الرجال أكثر من أن تحصر، بل قد تنوعت وتعددت فمنها:

ـ مصنفات في الرجال عامة مثل كتاب: الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، والتاريخ الكبير للبخاري.

ـ مصنفات في الثقات خاصة كالثقات لابن حبان، وكالثقات للعجلي.

ـ مصنفات في الضعفاء خاصة، كالكامل لابن عدي، وميزان الاعتدال للذهبي، ولسان الميزان لابن حجر.

ـ مصنفات في رجال طبقة معينة: كالمصنفات في الصحابة ومنها: الاستيعاب لابن عبد البر، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر.

ـ وأنواع من الطبقات: كالطبقات الكبرى لابن سعد، وتذكرة الحفاظ للذهبي.

ـ مصنفات في رجال كتب مخصوصة: مثل الكمال في أسماء الرجال ومتفرعاته: تهذيب الكمال، تذهيب التهذيب، وتهذيب التهذيب، وكلها في رجال الكتب الستة.

ـ المصنفات في رجال بلدان مخصوصة: كتاريخ بغداد وغيرها.

ب ـ عنايتهم باتصال الإسناد وانقطاعه، فألفت في ذلك بعض المؤلفات العامة في

---

[63]() مجموع الفتاوى (1/9).

[64]() المحدث الفاصل، ص(416).

العلل كعلل الدارقطني، أو في انقطاع خاص كالمراسيل مثلًا.

ج ـ العناية بشؤون الوضاعين بمعرفتهم أو معرفة ما وضعوا حتى كشف الأئمة كل ما وضع في الحديث، وصنفوا في ذلك مصنفات إما بجمع الأحاديث الموضوعة، أو بكشف الوضاعين وبيان حالهم مثل: كتاب الموضوعات لابن الجوزي، واللآلي المصنوعة في معرفة الأحاديث الموضوعة للسيوطي وغيرها.

2 ـــ عناية المحدثين بالتقعيد العلمي لعلوم الإسناد والمتن:

ومما لا يخفى أن منهج المحدثين اعتمد على قواعد وأصول ونشأت مع بداية العناية بالحديث والإسناد، حتى أصبحت علوم الحديث، أو مصطلح الحديث، أو أصول الحديث علمًا مستقلا كبيرًا، بل قد تشعب إلى علوم متنوعة كما تدرسه جامعات اليوم.

ويعتمد هذا التقعيد على التطبيق من واقع المتون والأسانيد، وعمدة التقسيمات لهذا التقعيد:

ـ تقسيم الحديث من حيث وصوله إلينا.

ـ تقسيم الحديث من حيث قبوله وردّه.

ـ تقسيم الحديث من حيث نسبته إلى قائله.

ويندرج تحت هذه التقسيمات فروع كثيرة، لا يتسع هذا المقام لحصرها.

ويبلغ تطور هذا التقعيد درجات عليا حيث درس أهل العلم نظريًّا وتطبيقيًّا، ما يتعلق بلطائف الأسانيد مما له أثر مباشر أو غير مباشر على صحة الحديث أو ضعفه مثل رواية الآباء عن الأبناء والعكس، والسابق واللاحق، والمسلسل وغيرها، ومن أهم المصنفات في ذلك ـ ما بين مطول ومختصر ـ:

ـ علوم الحديث لابن الصلاح.

ـ فتح المغيث للحافظ السخاوي.

ـ توضيح الأفكار للحافظ الصنعاني.

ـ نخبة الفكر للحافظ ابن حجر العسقلاني.

ـ تدريب الراوي للحافظ جلال الدين السيوطي.

3 ـــ عناية المحدثين بمتن الحديث:

متن الحديث ما ينتهي إليه السند من الكلام، ومن المعلوم أن الوصول إلى صحة هذا المتن ونسبته إلى رسول الله ﷺ وهو الغاية التي تصل إليها دراسة الإسناد.

والحكم على الحديث يشمل الحكم على الإسناد والمتن، ولذلك اهتم المحدثون بهذا المتن الذي هو الغاية المقصودة.

ويمكن أن نلخص بعض مظاهر الاهتمام بالمتن في النقاط الآتية:

أ ـ التصنيف في علوم المتن المختلفة ومن أهمها جمع الحديث، وهذا الفن أخذ أشكالًا متعددة وأنماطًا مختلفة، منها:

- التصنيف على المسانيد وهي التي صنفها أصحابها على مسانيد أسماء الصحابة مثل مسند الإمام أحمد، ومسند الحميدي، وأبي يعلى رحمهم الله تعالى.
- التصنيف على الأبواب وهي أكثر تصنيفًا، ومنها: ما يعتني بجميع أبواب الدين مثل:

ـ **الجوامع**، وهي التي جمعت أبواب الدين مثل الصحيحين وجامع الثوري وابن عيينة ومعمر رحمهم الله تعالى.

ـ **المستدركات** وهي مما يستدركه المؤلف على آخر على شرطه مثل مستدرك الحاكم رحمه الله تعالى.

ـ **المستخرجات**، جمع مستخرج وهو أن يأتي المصنف المستخرج إلى كتب من كتب الحديث فيخرج أحاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب فيجتمع معه في شيخه أو من رواءه، مثل: مستخرج الإسماعيلي، أبي عوانة، وأبي نعيم رحمهم الله تعالى.

ـ المجاميع: وهي جمع: مجمع، وهو كل كتاب جمع فيه مؤلفه أحاديث عدة مصنفات، ورتبه على ترتيب تلك المصنفات مثل الجمع بين الصحيحين للحميدي رحمه الله تعالى.

ـ **الزوائد** وهي كل كتاب جمع فيه مؤلفه ما يزيد على مصنفات أخرى مثل: مجمع الزوائد، والمطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية.

* تصنيف كتب تهتم بجمع أكثر أبواب الدين مثل:

ـ **السنن**، رتبت على الأبواب الفقهية كالسنن الأربعة.

ـ **المصنفات**، والمصنف هو الكتاب المرتب على الأبواب الفقهية فيجمع المرفوع والموقوف، مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة.

ـ **الموطّآت**: مثل موطأ الإمام مالك.

* المصنفات المتعلقة في جانب من جوانب الدين أو باب من أبوابه مثل:

ـ **الأجزاء**، وهو الكتاب الصغير مثل جزء رفع اليدين للبخاري.

ـ **الترغيب والترهيب** للمنذري.

ـ **الزهد والفضائل**، ذم الغيبة لابن أبي الدنيا، الزهد لأحمد، رياض الصالحين... وهكذا.

ب ـ التصنيف في الشروح الحديثية على مناهج مختلفة مطولة ومختصرة، وهي كثيرة: فتح الباري شرح صحيح البخاري، شرح النووي على صحيح مسلم، عون المعبود شرح سنن أبي داود، تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، سبل السلام شرح بلوغ المرام، وغيرها.

ج ـ عنايتهم بعلوم المتن المختلفة والتصنيف فيها مثل: أسباب ورود الحديث، ناسخ الحديث ومنسوخه، محكم الحديث، مختلف الحديث.

ومن حيث نسبته: المرفوع، الموقوف، المقطوع، الحديث القدسي وغيرها.

د ـ اهتمامهم بسلامة المتن من العلل القادحة فيه: وأنها تنقسم إلى قسمين: ظاهرة وخفية، كالعلل للدارقطني، العلل لابن أبي حاتم وغيرهما.

هـ ـ اهتمامهم بالمعنى وسلامته من التغيير، وتظهر هذه العناية فيما يلي:

ـ بيان التصحيف والتحريف الواقع في الحديث، وهذا فيه مصنفات خاصة كالتصحيف والتحريف للعسكري.

ـ بيان أحوال المدرج، والمقلوب، والمضطرب، والشذوذ والنكارة وغيرها، سواء في شروح الحديث أو في مؤلفات خاصة.

و ـ اهتمامهم بالمتن من حيث نقده، وقد وضعوا لذلك قواعد دقيقة، وقد أحسن الإمام ابن القيم : في جمعها في كتابه الجيد: المنار المنيف في الحديث الضعيف.

ومن تلك القواعد للفائدة:

ـ مخالفته لصريح القرآن.

ـ مخالفته لصريح السنة.

ـ مخالفته للإجماع القطعي.

ـ مخالفته لصريح العقل.

ـ ركاكة ألفاظ الحديث وسماجتها وغيرها.

ز ـ اهتمامهم بكشف الوضّاعين وأحاديثهم الموضوعة، ووضع القواعد التي يعرف من خلالها الحديث الموضوع.

جهود المحدثين المعاصرة :

إن جهود المحدثين لخدمة السنة النبوية لا زالت متوالية وقائمة بفضل الله ومنته وكرمه حتى وقتنا الحاضر، ومما ظهر في مجالات خدمة السنة النبوية في هذا العصر:

1 ـ فتح أقسام السنة النبوية في الجامعات والتي نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك فيها، والتي خرجت ولازالت تخرج بحمد الله مختصين في السنة ينشرون علومها، ويحققون كتبها، ويحملون لواءها.

2 ـ تأليف الكتب في بيان مكانة السنة النبوية وردّ كيد أعداء السنة، وتفنيد شبههم ومزاعمهم وهذا كثير، ولا زال الميدان يحتاج إلى أكثر، وما هذه الكلمات إلا دليلٌ على مزيد من الحاجة إلى ذلك، ومما ظهر من الدراسات المعاصرة:

ـ دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه للأعظمي.

ـ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للسباعي.

ـ بحوث في السنة المطهرة لمحمود الفرغلي.

ـ الحديث والمحدثون لمحمد زهو.

ـ حجية السنة النبوية لعبد الغني عبد الخالق، وغيرها كثير والحمد لله.

3 ـ تحقيق المؤلفات القديمة، أو جمع المتفرق بتصنيف جديد كمصنفات الشيخ ناصر الدين الألباني :، وهذه ظاهرة يشهدها كل مرتاد للمكتبات ولله الحمد.

4 ـ ظهور خدمة السنة في الحاسب الآلي وإنتاج عدد من البرامج والتي لا زالت بحاجة إلى مزيد من العناية والتدقيق رغم التسهيل.

5 ـ وجود مراكز لخدمة السنة النبوية في أنحاء من العالم، ومنها مركز خدمة السنة النبوية في المدينة النبوية، وهي تسهم في خدمة السنة، ولكن مع ذلك تحتاج إلى شيء من التطوير والجد وتوسيع نطاق الخدمة وبذل الجهود المتواصلة، حقق الله الآمال.

6 ـ المشاركة الميدانية لخدمة السنة النبوية في الإعلام المعاصر، وبخاصة في الشبكة المعلوماتية شبكة (الإنترنت)، ففيها مواقع متعددة لخدمة السنة النبوية، ومنها: موقع شبكة السنة النبوية وعلومها في مختلف اللغات والدرر السنية وغيرها، ولعل هذا من أنفع ما يقدم لعامة المسلمين خدمة للسنة النبوية، وغيرها من الجهود التي نسأل الله تعالى أن يبارك فيها.

□□□□□

المبحث الثالث:

القواعد المنـ ية

مـدخـل:

سبق أن أشرنا إلى أهمية السنة وعظم مكانتها في حياة المسلمين، ولذلك اهتم بها السلف وفهموها وطبقوها في واقع حياتهم، وخدموها خدمة عظيمة، وقد ألمحنا إلى شيء من هذه الخدمة.

ـ ومن فضل الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة أن قيض لها في كل عصر من يحمل هذا العلم ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين رجال اشتدت عنايتهم بضبط أسانيد شريعتهم بما لم تُعنَ به أمة قبلهم حفظوا عن نبيهم ﷺ كل أقواله وأفعاله وأحواله ثم اجتهدوا في التوثق من صحة كل حديث واحتاطوا أشد الاحتياط في النقل وفق ضوابط محددة ومنهجية ثابتة.

وهذه القواعد تكون بمجموعها المنهجية لفهم السنة الفهم الصحيح بإذن الله، **في** ضوء المنهج المبين في المقدمة.

القاعدة الأولى

الإخلاص(*)

مدخل: (صلاح العمل مرتبط بصلاح القلب، وصلاح القلب مرتبط بصلاح النية، فاطلب النية قبل العمل).

فالعمل الذي لا يصحبه الإخلاص صورة بلا حياة، وجثة بلا روح، والله تعالى إنما يريد من الأعمال حقائقها لا رسومها وصورها، وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[66].

وليس تشديد الإسلام في طلب الإخلاص، وتأكيده على تجريد النية لله، وتصحيح الاتجاه إليه وحده ضربًا من التشديد أو العبث؛ فإن الحياة نفسها لا تستقيم ولا ترقى إلَّا بالمخلصين، وأكثر ما يصيب الأمم والجماعات من النكبات والكوارث القاصمة إنما يجره عليها أناس لا يرجون الله والدار الآخرة.

إن الإسلام لا يرضى للمسلم أن يعيش بوجهين: وجه لله، ووجه لشركائه، ولا أن تنقسم حياته إلى شطرين: شطر لله وشطر لغيره، فالإسلام يرفض الثنائية المقيتة، والازدواجية البغيضة، التي نشهدها في حياة المسلمين اليوم، فتجد الرجل مسلمًا في المسجد أو في شهر

---

[65](*) استعرت هذه القاعدة من كتابي قواعد منهجية في الدعوة إلى الله، مع تصرف وزيادة تناسب المقام.

[66]() أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم (6543).

رمضان، ثم هو في حياته، أو في معاملاته، أو في مواقفه إنسان آخر.

إن الإخلاص هو الذي يوحد حياة المسلم، ويجعلها كلها لله، فصلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين.

وإذا كان (الإخلاص) يمثل هذه الحقيقة العميقة، ويترتب عليه نجاح الإنسان في حياته الدنيوية ومنها العلمية الدعوية، وحياته الأخروية، فنقف معه بشيء من البسط في الكلمات الآتية:

معنى المقاصد والنيات:

يستعمل العلماء القصد والنية بمعنى واحد.

قال الخطابي في تعريف النية: (هي قصدك الشيء بقلبك، وتحرى الطلب منك له) ([67]).

وقال الزركشي: (حقيقة النية ربط القصد بمقصود معين، والمشهور أنها مطلق القصد إلى الفعل)([68]).

وقال الماوردي: (النية قصد الشيء مقترنًا بفعله، فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم)([69]).

وقال القرافي: (هي قصد الإنسان بقلبه ما يريده بفعله)([70]).

---

[67]() أعلام الحديث للخطابي: (1/112).

[68]() المنثور في القواعد، الزركشي (3/284) (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، تحقيق: د. تيسير فائق أحمد محمود، راجعه د. عبد الستار أبو غدة 1402هـ - 1982م ط/1.

[69]() إتحاف السادة المتقين: (10/ 26 - 27).

[70]() الذخيرة للقراني: (1/134).

وقال البيضاوي: (النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض، من جلب نفع، أو دفع ضرر، حالًا أو مآلًا، والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاء لوجه الله، وامتثالًا لحكمه)[71].

ولا ريب أن النية التي صحت بها الأحاديث النبوية –وستأتي- إنما تتمثل في الإرادة الجازمة المصممة المتوجهة نحو الفعل، خيرًا كان أم شرًا، واجبًا أو مستحبًا، أو محظورًا، أو مكروهًا، أو مباحًا، ولهذا تكون أحيانًا نية صالحة محمودة، وأحيانًا نية سيئة مذمومة، حسب المنوي: أي شيء هو؟ وحسب المحرك الباعث: أهو الدنيا أم الآخرة؟ أهو وجه الله أم غيره؟

فليست النية إذن مجرد خاطرة تطرأ على القلب لحظة ثم لا تلبث أن تزول، فلا ثبات لها، يقول ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به، أو تتكلم به»[72]، وهذا يؤيد ما قاله بعضهم من أن النية ليست مجرد الطلب، بل الجد في الطلب[73].

أهمية النية في تحقيق الإخلاص :

لا يتحقق الإخلاص في العمل إلا بعنصرين أساسيين:

---

[71]() فتح الباري: (1/19).

[72]() أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاق والطلاق، برقم(2528)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس، برقم (331)،.

[73]() وتطلق النية ويراد بها تمييز الفعل وإن كانت صورة العمل واحدة مثل التفريق بين صلاتين متحدتين في الأفعال، فالذي يميز بينهما هو النية، وهذا المعنى ليس المقصود بالبحث هنا، وإنما ما ذكر وهو الإخلاص.

الأول: استحضار النية فيه، فإنما الأعمال بالنيات، ومن أدى العمل أداءً آليًا بغير نية طيبة، لم يدخل دائرة المخلصين.

والثاني: تجريد النية من الشوائب الذاتية والدنيوية، حتى تخلص لله سبحانه، فإن الله لا يحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك، فالعمل المشترك لا يقبله الله تعالى، والقلب المشترك كذلك، جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عزَّ وجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملًا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشرك»(74).

إخلاص النية أساس القبول :

إن أي عمل يقوم به المسلم في الحياة - فضلًا عن الدعوة إلى الله - لا يكون مقبولًا عند الله عز وجل، ولا يكتب في سجل الحسنات إلا إذا أقيم على ركنين – بعد الإيمان بالله -:

أولهما: الإخلاص، وتصحيح النية.

وثانيهما: موافقة السنة ومنهاج الشرع.

وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن وبالثاني تتحقق صحة الظاهر، وقد جاء في الركن الأول قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»(75)، فهذا هو ميزان الباطن، وجاء في الركن الثاني قوله

74() أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك غير الله في عمله، برقم(7475).

75() سبق تخريجه.

ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[76]، أي: مردود على صاحبه، وهذا ميزان الظاهر.

وقد جمع الله الركنين في أكثر من آية في كتابه الكريم، قال تعالى: [لقمان: 22]، وقال تعالى: [النساء: 125].

وإسلام الوجه لله: إخلاص القصد والعمل له.. والإحسان فيه أداؤه على الصورة المرضية شرعًا، ومتابعة رسول الله ﷺ وسنته.

قال الفضيل بن عياض: (إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة... ثم قرأ الفضيل قوله تعالى: [الكهف: 110])[77].

---

[76]() أخرجه مسلم: (1/22رقم1718)، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، وأصله متفق عليه بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد».

[77]() ينظر: علم الحديث لابن تيمية: ص: (172،183).

وقال ابن مسعود ط: (لا ينفع قول إلا بعمل، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما يوافق السنة)[78].

وبذلك يتبين مدى حاجة الأعمال الظاهرة إلى النيات، فالعبادات التي تخلو من النية لا قيمة لها أبدًا، كالعبادات التي يؤديها المرء نسيانًا أو سهوًا، أو هو نائم، أو غافل.

والعبادات التي تنبعث بنية غير صادقة لا تعتبر باطلة فحسب، بل يعاقب صاحبها بسبب قصده الفاسد.

فالعبادات التي يقوم بها المراؤون والمنافقون وعباد الدينار والدرهم وزرها عظيم، وحسابها شديد، يقول تعالى: 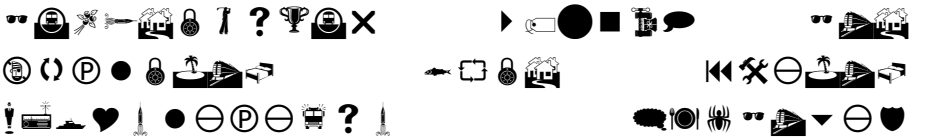 [الفرقان: 23].

ولذلك رتب الرسول ﷺ الثواب والمغفرة في أكثر من عمل على القيام بالأعمال بنية صالحة، منها على سبيل المثال قوله ﷺ: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[79].

وقوله ﷺ: «من اتبع جنازة مسلم إيمانًا واحتسابًا وكان معه حتى يصلي عليها ويفرغ من دفنها فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل

---

[78]() العدة: (1/8).

[79]() أخرجه البخاري: (1/16رقم38)، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابًا الإيمان، وكتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، ومسلم: (1/523رقم760)، كتاب الصلاة، باب الترغيب في قيام رمضان.

قيراط مثل أحد...»[80].

وقوله ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[81].

فهذه أعمال متنوعة وغيرها كثيرة، الأجر متوقف فيها على صدق النية وسلامة المقصد، ومما يدل على ذلك صراحة قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[82].

ذلك أن النية رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي عليه يبنى، فإنها روح العمل وقائده وسائقه والعمل تابع لها يبنى عليها، يصح بصحتها، ويفسد بفسادها، وبها يستجلب التوفيق، ويعدمها الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة، فكم بينَ مريدٍ بالفتوى وجه الله ورضاه والقرب منه وما عنده، ومريد بها وجه المخلوق ورجاء منفعته وما يناله منه تخويفًا أو طعمًا فيفتي الرجلان بالفتوى الواحدة، وبينهما في الفضل والثواب أعظم مما بين المشرق والمغرب، هذا يفتى لتكون كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر، ورسوله هو المطاع، وهذا يفتى ليكون قوله هو المسموع، وهو المشار إليه، وجاهه هو القائم، سواء وافق الكتاب والسنة أو خالفهما، فالله المستعان.

وقد جرت (سنة الله تعالى) أن يلبس المخلص من المهابة والنور والمحبة في قلوب الخلق وإقبال قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه

---

[80]() أخرجه البخاري: (1/18رقم47)، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان.

[81]() أخرجه البخاري: (4/34رقم2853)، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرسًا في سبيل الله.

[82]() سبق تخريجه.

ونيته ومعاملته لربه، ويلبس المرائي اللابس ثوبي الزور من المقت والمهانة والبِغضة ما هو لائق به، فالمخلص له المهابة والمحبة، وللآخر المقت والبغضاء)[83].

أهمية النية في القرآن الكريم:

إذا كانت النية بهذه الأهمية التي ذكرنا بعضًا منها فيما مضى، فمبعثها اهتمام القرآن الكريم والسنة المطهرة بأمر النية.

لقد عني القرآن الكريم بالنية كثيرًا، ووردت بعبارات مختلفة مثل: إرادة وجه الله، أو إرادة الدار الآخرة، أو ابتغاء وجه الله، أو ابتغاء مرضاته، أو الإنابة أو الإخلاص، أو في سبيل الله... إلخ.

يقول الله تعالى: [آل عمران: 145].

ويقول تعالى: [الشورى : 20].

[83]() إعلام الموقعين: (4/ 199).

ويقول تعالى: [الإسراء: 18-19].

فهذه الآيات الكريمة تقسم الناس قسمين: مريد للدنيا، بمعنى أنه ليس له هدف سواها، ومصيره ما ذكرت الآية الكريمة جهنم.

ومريد للآخرة، الذي جعلها هدفه، وسعى لها سعيها، فسعيه مشكور، وعمله مأجور، ومصيره الفوز بالجنة، والسعادة برضوان الله عز وجل.

ولذلك جاء الحث في القرآن الكريم على إرادة الآخرة وهو الإخلاص.

يقول الله تعالى حثًا على التخلق بهذا الوصف والتحلي بهذا السلوك في كل عمل وفعل: 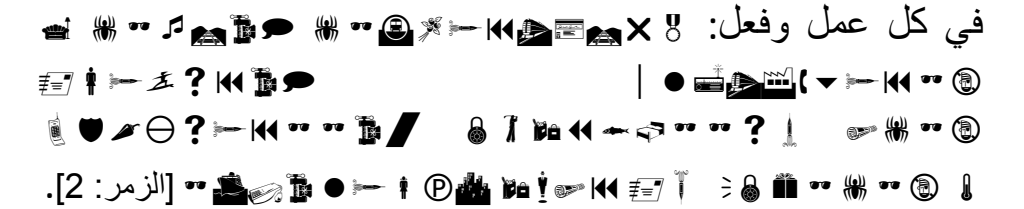 [الزمر: 2].

ويقول سبحانه: [illegible] [البينة: 5].

وكم أشاد القرآن الكريم بالمخلصين الذين لم يريدوا بأعمالهم إلا وجه الله تعالى يبتغون مرضاته، ولا يركضون وراء الناس وثنائهم.

من هؤلاء: الأبرار الذين يطعمون الطعام لوجه الله، لا يريدون من أحد جزاء ولا شكورًا وهم الذين قال الله فيهم: [illegible]

وعليه فيجب على المسلم أن يبتغي بعمل وجه الله سبحانه وتعالى، وبذلك يرجو قبوله عند الله، والمثوبة عليه في الآخرة.

أهمية النية في السنة:

في السنة النبوية أحاديث كثيرة تشيد بفضل النية والإخلاص، مظهرة ما لها من أثر على الأعمال والعاملين، وهذا عرض لبعض النصوص في هذا الباب:

1 ـ النية مصدر قبول الأعمال:

عن أبي أمامة الباهلي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ «لاشيء له»، ثم قال: «ألا إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه»([84]).

إن نوايانا هي التي تشكل أعمالنا وتوجهها، والعمل مهما تكن ضخامته وخطره، لا يكون جليلًا ولا يكتب له القبول الحق إلا بقدر ما تكون النوايا جليلة وصادقة، وما جاء عن الرسول ﷺ في وصيته

---

[84]() أخرجه النسائي: (6/25رقم3140)، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وإسناده جيد.

لمعاذ حين وجهه إلى اليمن: «أخلص دينك يكفك العمل القليل»[85].

2 ـ الجزاء على العمل يتنوع بتنوع النية:

عن عبد الله بن مسعود ط عن النبي ﷺ أنه قال: «الخيل ثلاثة، ففرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فالذي يربط في سبيل الله، فعلفه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها فهي تستر من فقر»[86].

ومن ثم وجب على المؤمن – خاصة الداعية - أن يحسن نيته، فإن ما افترق الناس في غالب أحوالهم إلا من هذا الباب، لأن الغالب على بعضهم تقارب أفعالهم، ثم إنهم يفترقون في الخيرات والبركات بحسب مقاصدهم وتنمية أفعالهم.

3 ـ ونية الصالحة تجعل العادة عبادة والمباح طاعة:

إن الإخلاص والنية الصالحة هما وقود!! العمل، الذي إذا وضعا على أي عمل ولو كان من المباحات والعادات حوله إلى عبادة وقربة لله تعالى.

---

[85]() أخرجه الحاكم: (4/341رقم7844)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعقب الذهبي بقوله: لا، يعني: غير صحيح. واستشهادنا به هنا لمعناه، فالمعنى صحيح.

[86]() أخرجه أحمد: (1/395رقم3756)، وقال الهيثمي في المجمع: (5/261،260)، رواه أحمد ورجاله ثقات، فإن كان القاسم بن حسان سمع من ابن مسعود، فالحديث صحيح، قلت في سنده: شريك بن عبد الله النخعي، وهو سيء الحفظ، لكن له شواهد تقويه.

فعن أبي ذر ط أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[87].

قال القرطبي: فيه دليل على أن النيات الصادقات تقلب المباحات إلى الطاعات[88].

4 ـ صدق النية يثمر نجاح العمل ولو وقع خطأ أو لم يتم :

عن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس ن، قال: كان أبي - يزيد - أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها، فأتيته بها، فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ، فقال: «لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن»[89].

وعن أبي كبشة الأنماري ط أنه سمع النبي ﷺ يقول: «...إنما

---

[87]() أخرجه مسلم: (2/697رقم1006)، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من أنواع المعروف.

[88]() المفهم: (3،522).

[89]() أخرجه البخاري: (2/138رقم1422)، كتاب الزكاة، باب إذا تصدق على ابنه وهو لا يشعر.

الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلمًا، فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم أن لله فيه حقًا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيته، فأجرها سواء...»[90].

5 ـ صدق النية يثمر للعبد كفاية الله ومعونته:

من بركات النية الخالصة أن صاحبها يستجلب عون الله له، وقرب الله منه، ففي حديث أبي هريرة ط، عن النبي ﷺ قال: «ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[91].

وفي رواية ابن حبان والحاكم من حديث ميمونة: «ما من أحد يدان دينًا يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أدَّاه الله عنه في الدنيا»[92].

وقد جاء عن عمر ط في رسالته الشهيرة في القضاء قوله: «فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله»[93].

قال ابن القيم في شرح هذه الكلمات: «هذا شقيق كلام النبوة، وهو

---

[90]() أخرجه الترمذي: (4/562رقم2325)، كتاب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا أربعة نفر، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

[91]() أخرجه البخاري: (2/139رقم2387)، كتاب الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أدائها أو إتلافها.

[92]() موارد الظمآن، كتاب البيوع ص: (282)، ومستدرك الحاكم: (2،27).

[93]() تاريخ المدينة، ابن أبي شيبة (1/412)، والدارقطني في السنن (3/206)، والبيهقي في السنن (10/65/6/ 119 و135 و150).

حري بأن يخرج من مشكاة المحدث الملهم، وهاتان الكلمتان من كنوز العلم، ومن أحسن الإنفاق منهما نفع غيره، وانتفع غاية الانتفاع، فأما الكلمة الأولى فهي منبع الخير وأصله، والثانية أصل الشر، فإن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى، وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن ذا الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان لله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجوا؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟»[94].

وفي السنة نصوص كثيرة توضح قدر النية وتظهر فضل الإخلاص لكننا نكتفي بما ذكرناه، ففيه الخير والكفاية.

مواصفات المخلصين من طلاب العلم والحديث :

إذا كان فيما سبق بيان لقدر الإخلاص وقيمة النية، فإنه يجب على الدعاة أن يدركوا عظم أمر الإخلاص ويستشعروا الحقائق التالية:

أولًا: أن يقصدوا من طلبهم للعلم وجه الله تعالى، وأن يحذروا المقاصد الدنيوية المتنوعة.

ثانيًا: أن تكون جميع تصرفاتهم وأعمالهم وسلوكهم الاجتماعي على وفق شريعة الله.

ثالثًا: أن يحاسبوا أنفسهم بشكل دائم ومستمر، وأن يتساءلوا ماذا يريدون من تبليغ الدعوة؟ وماذا يقصدون من دعوة الناس؟

---

[94]() إعلام الموقعين: (2،178).

رابعًا: أن ينظروا إلى أفعالهم هل هي مطابقة لأقوالهم ولسان حالهم؟

خامسًا: أن يحذروا مكائد الشيطان، ووساوس النفس والهوى، وفتنة العجب ومزالق الرياء[95]. فإن هذا من أكبر المزالق، وأعظم الأخطار.

سادسًا: أن يحسنوا الظن بالمسلمين، ولا يسيئوا الظن بهم وبأعمالهم، ففي الحديث: «إن أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر»[96].

فطلاب العلم والدعاة إلى الله إذا أدركوا هذه الحقائق، واتصفوا بهذه المواصفات، ساروا صادقين في درب الإخلاص، ومضوا مخلصين في طريق العلم والدعوة حقق الله سبحانه على أيديهم إصلاح البشر، وهداية الناس وبرئت ذممهم، بل إن الناس يتأثرون بهم، ويستجيبون لدعوتهم، ويقبلون هدى الله عز وجل طائعين مختارين.

لماذا كان الإخلاص ضرورة للعلماء وطلاب العلم والدعاة؟:

إن العمل لنشر الإسلام وعودته لقيادة الحياة بعقيدته وشريعته وأخلاقه وحضارته، إنما هو عبادة وقربة إلى الله عز وجل من ناحية، وجهاد في سبيل الله من ناحية أخرى، وتجريد النية لله في هذه العبادة وذلك الجهاد أمر أساس لقبول العمل ولنجاحه معًا، فالنية المدخولة تفسد العمل، وتلوث النفس، وتضعف الصف، وتحبط الأجر، والنية

---

[95]() مدرسة الدعاة: (1،136).

[96]() أخرجه البخاري: (4/31رقم2839)، كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر من الغزو.

الصالحة تصلح العمل، وتقوي العزم، وتفسح الطريق، وتعين على إزالة العقبات، قال تعالى: [illegible] [النساء: 35]، فدل على أهمية الإرادة والنية في إنجاز المهمة المنشودة، فهي سبب توفيق الله تعالى وتأييده.

وقد كتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز ناصحًا له، فقال: «اعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، ومن نقصت نيته نقص بقدره».

ولهذا السر بدأ الأمام البخاري كتابه «الجامع الصحيح» بهذا الحديث الذي عده بعض العلماء ربع الإسلام أو ثلثه: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها إلى ما هاجر إليه»[97].

إن على المسلم العامل للإسلام أن يفتش في قلبه عن حقيقة نواياه وبواعثه، فإن كان فيها حظ للدنيا أو للشيطان، جاهد أن ينقى قلبه من دخله، وأن يجرد نيته لله، وأن ينذر نفسه محررًا لربه، كما قالت امرأة عمران [illegible] [آل عمران: 35]، وهذه الكلمة من أم

---

[97]() سبق تخريجه.

مريم (محررًا) توحي بأن سنة الله ألا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا من كل شركة محررًا من كل عبودية لغيره.

إن الحياة لا يسود فيها الحق، وينشر الخير، وتعلو كلمة الإيمان، وتخفق أعلام الفضيلة بانحراف النوايا، ولا بطلب المغنم من الدنيا، ولا بالمرائين الذين لا يعملون إلا ليراهم الناس، ويسمعوا بهم، ويتحدثوا عنهم، ويشيروا إليهم بالبنان، بل ينتصر الحق والخير والإيمان والفضيلة بالمخلصين الذين يعتنقون المبادئ بإخلاص لله ورغب ورهب[98].

إن الداعية الحق لا يجري وراء المطامع، ولا يخطف بصره بريق الشهرة، ولا يجذب قلبه سطوة الجاه والنفوذ... إن الدنيا ليست أكبر همه، ولا مبلغ علمه، إن أكبر همه أن يتقبله الله في عباده الصالحين، وجنده الصادقين، وحزبه المفلحين.

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم :: «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت، فإذا طلبت الإخلاص، فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص»[99].

ويقول الغزالي : في كلام نفيس يسطر بماء من ذهب: بعد أن ذكر

---

[98]() النية والإخلاص: ص:(97-98) بتصرف.

[99]() ينظر: منزلة الإخلاص من كتاب مدارج السالكين.

فتنة حبّ الجاه والظهور والشهرة والمحمدة عند الناس وبخاصة لدى الدعاة والعلماء: «وأشد الخلق تعرضًا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله، والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ، وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحة الخلق، ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعى أنه يفرح بما يسّر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه واعظًا، وانصرف الناس عنه، واقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى، إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه، ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك، إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدري المسكين، أن انقياده للحق، وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابًا، وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق، يغرق فيه الجميع، إلا الشاذ النادر، والفرد الفذ، وهو المستشفى في قوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [ص: 83][100].

إنها كلمات حرية بالتأمل من كل طالب علم وداعية، تغوص في أعماق النفوس، وتصارحها بخفاياها.

إن وضوح هذا الهدف أمر ضروري للعاملين في الدعوة، فقد

---

[100] () إحياء علوم الدين: (4/ 369).

يكون هدفهم تصحيح العقيدة أو نشر الشريعة، أو عودة مجد أو حضارة أو نحو ذلك من الأهداف التي يسعون إليها، ويحرصون على تحقيقها، ولكن هدف الأهداف، وغاية الغايات من وراء ذلك كله، هو رضوان الله عز وجل.

النتائج المترتبة على مخالفة هذه القاعدة:

لا شك أنه يترتب على الانحراف عن هذه القاعدة الثمينة العظيمة آثار سلبية على الداعية والدعوة نفسها، أوجز بعضها فيما يلي:

1 - إن غياب الإخلاص - مع ما سبق - يعرض الداعية إلى الرد وعدم القبول، ويعرض الدعوة إلى التلاشي والاضمحلال، ويورث في القلوب نوايا الدنيا بشهواتها، ويوقعها في شراك الشيطان وأعماله.

2 - كما يفتح عدم الإخلاص وتشعب النوايا الباب على مصراعيه لاتباع الشيطان، وأعداء الدعوة ليقدحوا في الدعوة نفسها فضلًا عن الداعية الذي انحرف قصده ومال بنيته يمينًا ويسارًا.

3 – وإن مخالفة هذه القاعدة قد ينشأ عنها مجموعة من الناس يندسون في صفوف الدعوة، كلامهم كثير، وعملهم قليل، يقلون عند الفزع، ويكثرون عند الطمع، يتخذون الدعوة قنطرة إلى مآربهم، وسلمًا إلى مطامعهم، متظاهرين بالتقوى، متوسلين بالقول المعسول، والحماس المفتعل، واللمس الناعم، وباطنهم خراب وقلوبهم هواء، وذلك شر ما تصاب به الدعوات الربانية، وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ذلك حين قال: «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى

من السكر، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله عزَّ وجل: أبيَ يغترون أم علي يجترئون؟ فبي حلفت: لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا»[101].

4 ـ ومخالفة هذه القاعدة يورث التحزب والتنافر وتبادل الاتهامات، وتشيع الدعاة إلى فرق وأحزاب، فكل يدعي أنه الصواب وغيره الخطأ، ويلمز ويغمز بالآخرين، ومن ثم فشل الدعوة نفسها، وعدم الوصول إلى أهدافها.

وفي ختام هذه القاعدة: أجيب على سؤال: كيف يكون الإخلاص في التعامل مع السنة النبوية؟

والإجابة باختصار: أن الإخلاص يفتح مغاليق من العلم لا تدرك بمجلة النظر العلمي الظاهر، يقول تعالى: ﴿ ﴾ [البقرة: 282] .

وآية ذلك ما يقع من التفاوت بين أهل العلم في الاستنباط من النص الواحد؛ ولأن علم الحديث علم شاق وقد يقطع عن طلب كثير من الدنيا وإنما يهون الإخلاص المقتضي تقديم ما عند الله من الأجر والثواب، ومن ثمَّ الرسوخ فيه وإدراكه بعمق وبصيرة.

وأخيرًا: إن هذه القاعدة جدٌّ وليست هزلًا تحتاج إلى مصارحة ومكاشفة للنفس – كما سبق في كلام الغزالي : – ومراجعة بين وقت

---

[101]() أخرجه الترمذي: (4/6404)، كتاب الزهد، باب خاتلي الدنيا بالدين، وفي سنده يحيى بن عبد الله بن موهب تكلم فيه شعبه، وذكر الترمذي شاهدًا له من حديث ابن عمر (2405)، وقال: حديث حسن غريب.

وآخر كما قال سفيان الثوري :: «ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي».

هذه هي القاعدة الأولى، ومنطلق الدعوة، فليبدأ طالب فهم السنة والعامل بها بتحريرها وتجريدها. حقق الله تعالى ذلك.

□□□□□